برقة العربية

بقلم الدكتور فوزي حنانو

على صعيد بلت ثراه دماء الشهداء من اصحاب عمر المختار ، وفي منبسط من الارض مطل على خليج درنة ، لؤلؤة البحر المتوسط ، وامام قصر الحاكم ، وقف الماريشال بالبو وزير المستعمرات الايطالي قبيل الحرب العالمية الثانية ، تحف به حاشيته ،وعلى مسافة مائتي ياردة اصطف فريق من عربان المنطقة وسكانها يتقدمهم كبيرهم حاملاً بيده عريضة موقعة من مئات الفلاحين الملاكين الذين انتزعت اراضيهم منهم واعطيت الى المستعمرين الايطاليين ، وتقدم مندوبهم فسلم العريضة للحاكم ورفعها هذا بدوره الى الوزير. القى الوزير نظرة عجلى على محتوياتها والتفت الى الحاكم قائلاً : « وماذا يريد هؤلاء ؟ » فاجاب الحاكم قائلاً : « انهم من الفلاحين الذين يزعمون ان اراضيهم اغتصبت منهم واعطيت الى الايطاليين وهم يلتمسون انصافهم برد ما زعموا انه حقهم السليب. » فداعب الماريشال لحيته لحظة ثم التفت وقال مشيراً بيده الواحدة الى المرابع الخضر والى الاراضي الزراعية الممتدة امامه«ان هذه الاراضي هي ملك للأيطاليين يزرعونها ويستثمرونها وينتفعون بخيراتهم وينفعون الوطن الام » « واما هؤلاء » ، واشار بيده الى الفلاحين والاهلين ، « فيزرعون هذا » واشار الى البحر .

هذه قصة رواها لي احد ضباط برقة القدماء الذي كان يحارب مع الفرقة الليبية في معركة العلمين واردف يقول لي: وانت ترى يا سيدي اننا لم نزرع البحر ،ولكننا استرجعنا اراضينا واملاكنا بعد ان انكسرت جيوش المحور وانتصرت جيوش الحلفاء في تلك المعركة الشهيرة التي ابلى خلالها الليبيون والبرقاويون خصوصاً البلاء الحسن فضربوا الجيش الايطالي ومن معه ضربة حاسمة ارتدوا على اثرها خائبين واضاعوا المعركة والحرب برمتها ، وها قد حصلت ليبيا على استقلالها بقرار من الامم المتحدة وغدونا بنعمة الله متمتعين بالحرية ناعمين في ديارنا عاملين على اعلاء شأن دولتنا الفتية وانهاضها لتصبح قادرة على ادارة شئونها دون ما اهمال او تقصير . وقد اثار حديث القائد البرقاوي اهتمامي لدرجة عولت معها ان انتهز اول فرصة ملائمة تسنح لزيارة ولاية برقة والتجول في انحائها ودراسة معالمها وتاريخها وآثارها والاطلاع على ما احدثته الحرب العالمية الاخيرة بها من تخريب ، وما تركته من انطباعات نفسانية لها بلا شك تأثيرها في تحويل مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية. ولما كنت في طريقي الى ليبيا كمبعوث ثقافي ادركت بأن الفرصة لن تفوتني لانفاذ هذه الفكرة وعكفت على تدوين ما سمعت في مفكرتي، وعملت مخططاً صغيراً للبلاد الليبية زودته باشارات خاصة للأماكن والمحال الهامة التاريخية والاثرية استهدي به حين اللزوم .

***

تاريخ برقة من الموضوعات التي شملها الغموض والاهمال بين جمهور المؤرخين والباحثين ، بالرغم من ان المصادر التاريخية المختلفة تشير بوضوح الى ما كان لهذا الاقليم من مجد تالد ومدنية عريقة في العصور الغابرة. ويرجع اقدم عهدنا بظهور برقة على مسرح الحوادث في حوض البحر الابيض المتوسط الى القرن السابع قبل الميلاد ، حين نزل جماعة من الاغريق من سكان جزيرة « ثيرا » من بحرايجه على سواحل برقة ، واستوطنوا بها ،واسسوا في سنة ٦٤٠ ق . م . مدينة قورينا (الشحات)، وهي اول المدن الخمس التي اشتهرت فيما بعد باسم « بنطابوليس » . بذلك تدخل برقة ضمن نطاق النفوذ الاغريقي الشرقي القديم في الوقت الذي يلاحظ فيه ان طرابلس تذهب الى الفينيقيين المقيمين غرباً من قرطاجنه .

وبعدئذ تتوالى الاحداث والغزوات التي تعزز هذا الاتجاه الشرقي في برقة منذ بداءة تاريخها . فغزوة قمبيز لمصر سنة ٥٢٥ ق . م . يتلوها خضوع برقة لسلطانه ، وما حدث في عهد قمبيز يتكرر بشكل اقوى واوضح عند غزوة الاسكندر المقدوني لمصر سنة ٣٣١ ق . م . ، وتظل برقة في ايدي البطالسة الى ان تنتقل هي ومصر ذاتها لحكم الرومان سنة ٣١ ق . م . والحكم الروماني في برقة فاتر في مجمله ، لا يصحبه ذلك النشاط التجاري الزراعي الذي كانت البلاد تمتاز به في العصر السابق. واهم حادث في القرون المسيحية الأولى هو ثورة اليهود التي اندلع لهيبها في طول البلاد وعرضها سنة ١١٥ ميلادية ، عندما قام نحو خمسين الف يهودي مسلحين يقيمون في برقة ، انتهزوا فرصة غياب الامبراطور تراجان وانشغاله في حروبه الشرقية على حدود فارس ، فذبحوا الاهالي الآمنين ، واخذوا في تخريب المدن الاغريقية الزاهرة تخريباً منتظماً متوالياً لمدة عامين كاملين ، حتى قيل ان برقة لم تستطع منذ تلك الحركة اليهودية العابثة استعادة مكانتها من العالم القديم في القرون السابقة ، وفي سنة ٢٩٧ م . عندما قسم «قلديانوس» الامبراطورية الرومانية الى قسميها الشرقي والغربي ذهبت برقة ومعها مصر الى القسم الشرقي البيزنطي ، وبقيت في حكم اباطرة القسطنطينية ، الى ان دخلتها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص في سنة ٦٤٢ م . ولكن الفتح العربي لم يغير كثيراً من عادات الناس وتقاليدهم وطرق معاشهم في برقة الى نهاية القرن العاشر الميلادي ، غير ان قبائل البدو المعروفة باسم بني هلال وبني سليم تهاجر من الجزيرة الى مصر فبرقة في القرن الحادي عشر ، وتعتبر هجرتهم هذه اعظم حادث في تاريخ برقة الوسيط ؛ لان تلك القبائل العربية الخالصة تقيم هنالك ، وتستأصل المناصر الغريبة عنها من اغريق وغيرهم شيئاً فشيئاً كما تختلط بالسكان الاصليين من البربر الرحالة وتمتصهم في صلبها ، فينتج من ذلك عنصر تغلب عليه العروبة ، وهو العنصر الذي ظل سائداً في برقة حتى اليوم بالرغم من استيلاء الاتراك عليها عام ١٥١٧ م ، وقيام اسرة القرمنلي التركية التي استقلت بها في سنة ١٧١١. وفي سنة ١٨٣٥ يستردها السلطان مراد الثاني لسلطنته . وفي سنة ١٩١١ تنتقل برقة مع طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان الى حكم الايطاليين . الا ان الحرب العظمى الأولى تحول دون دخول هؤلاء الحكام الجدد في مستعمرتهم الافريقية ، ولا يتم استيلاء الايطاليين الفعلي على طرابلس وبرقة الا سنة ١٩٣٢ بعد كفاح طويل مجيد مع اهل تلك البلاد ،ولكن الحرب العالمية الثانية كما يعلم الخاص والعام تستأصل شأفة المستعمرين الايطاليين من افريقية ، وتغير مجرى تاريخ برقة الى هدف لا يعرفه اليوم الا الله .

من الامور التي تدعو للأسف جهل الشرقيين ببرقة جهلاً يكاد يكون تاماً ! واغلب الظن ان هذا الجهل يرجع الى عاملين : الاول وقوف الايطاليين ايام استعمارهم في وجه الاجانب وردهم عن زيارة ذلك القطر . والثاني اعراض الناس انفسهم عن هذه الزيارة لاعتقاد شائع بان برقة

ليست الا جزءاً من الصحراء الكبرى ، ومن ذا الذي يرغب في زيارة الصحراء ؟ وربما يدهش القارىء عندما نؤكد له بان نضرة الأودية ، وخضرة الجبال ، وجمال الطبيعة ، وتنوع المناظر التي تأخذ بمجامع القلوب والالباب ، ورقة الهواء وصفاءه ، تتجلى في ربوع برقة ، حتى ان المرتحل ليؤخذ خياله وهو بين جبالها ووهادها الى اجمل ما في اوروبا الجنوبية من مرتفعات واودية وسواحل تبهر الانظار . وليس من المبالغة في شيء ما قاله بعض الكتاب الاوروبيين بان طبيعة برقة وهواءها لا يختلفان عن طبيعة أواسط ايطاليا وهوائها ، على حين يصرح بعض علماء طبقات الارض بان الجبل الاخضر الواقع بين خليج سرت وخليج السلوم انما هو امتداد لجبال اوربا الجنوبية وايطاليا على وجه اخص .

ويضاف الى جهلنا بطبيعة برقة جهلنا بآثارها ، فقد اعتاد الناس على التفكير بان ربوع برقة خالية من شواهد عزها القديم ورخائها التجاري العظيم في العصور اليونانية الرومانية . وحقيقة الامر ان آثار برقة ظلت معالمها مطموسة حتى دخلها الايطاليون فاوفدوا لها الوفود والبعثات العلمية التي اخذت في التنقيب وترميم الابنية الاثرية المتداعية الى آخر عهدهم بها . ومع انهم كشفوا عن الكثير من تلك الآثار ، فما زالت هنالك فرص هائلة لبعثات عدة في المستقبل ، اذ لا تزال في برقة مناطق اثرية واسعة لم تمسها يد الحفارين بعد . ومهما يكن من شيء فان برقة اصبحت الآن عامرة بالعاديات التي تستحق العناية والزيارة والبحث العلمي والتنقيب الاثري .

وخطأ آخر شائع بين الناس ، الا وهو اعتبار برقه جزءاً من طرابلس بقدر ما هي في نظرهم جزء من الصحراء الغربية . وما هذا الا نوع من الشطط الذي كانت تمليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التي ربطت حتف برقة بطرابلس ايام الحكم الايطالي . ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس ، كما ان تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس ، وقبائل برقة غير قبائل طرابلس ، فهم انقى عنصراً في عروبتهم من اعراب طرابلس ، واشد تمسكاً ببداوتهم من غيرهم ، ولكنهم اقرب اللهجات الى اللغة العربية الفصحى القديمة .

كل هذه المظاهر والخصال لمستها خلال رحلتي التي كانت رحلة ممتعة على ما فيها من عناء ، يشاهد فيها المسافر ذلك المسرح الخالد الذى دارت فيه رحى وقعة العلمين بالصحراء الغربية التي تمتد آثارها من العامرية الى مرسى مطروح وما وراءها ، ففي كل مكان يشاهد الانسان مناطق الاسلاك الشائكة التي تحد الجهات التي كانت عامرة بالالغام ، وطوابير الدبابات العاطلة ، والمدافع والعربات المحطمة ، وخطوط الدفاع المنقورة في الصخر وغير تلك من المشاهد العديدة .

وشوارع طبرق تكاد تكون شبه خاوية ، وبيوتها في جملتها مهدمة الا ما قام باصلاحه رجال الادارة والحكومة لاقامتهم ونفر من السكان الذين ظهر عليهم الجد والرغبة باعادة الحال الطبيعية لما كانت عليه . وطبرق تقع على هضبتين يفصل بينهما واد غير سحيق ، يهبط منه الواحد شمالاً الى خليج واسع عميق هو ميناء المدينة ولا يرى فيه الانسان غير المراكب التي كان لا يزال بعضها غارقاً من فعل الغارات الجوية . ويبدأ من الطرف العظيم الذي عبّده الايطاليون من طبرق الى حدود تونس ، ويبلغ طوله نحو الفي كيلومتر . امّا الهضبة الشرقية التى بها محطة طبرق فهي منطقة الحرام التي كان يشغلها الجنود ويعمّها عتاد الحرب . وتقع المدينة او بالأحرى ما بقي منها على الهضبة الشرقية . وليس بطبرق من آثار قديمة تذكر سوى اجزاء تافهة من الحائط الروماني ومخزن المياه البيزنطي وهو كبير وعميق في شكل مستطيل منقور في الصخور الجنوبية ليجتمع فيه ماء المطر للاستعمال وقت التحاريق .

واتجهت بعد ذلك صوب مدينة درنة على بعد مائتي كيلو متر من طبرق ، وفي هذه المرحلة من الطريق تكثر آثار موقعة افريقية الشمالية بين الحلفاء وجنود المحور ، من طوابير مصفحة عاطلة ، الى هياكل طائرات محترقة ، وعربات مقلوبة ، ومدافع قواعدها مهشمة ، وغير ذلك من ادوات القتال ، ولا تنس مقابر القتلى التي يراها الرائي بين آونة واخرى . واول هذه المقابر واوسعها مقبرة العلمين ، وهي تظهر للمسافر على المرتفعات الشمالية في شكل ثلاث غابات كبيرة من الصلبان البيضاء ، اولها لقتلى الانجليز ، والثانية للالمان ، والثالثة للايطاليين يرفرف عليها جميعاً في اعلى النقط علم ابيض كبير .

واهم ما لفت نظري في هذا القسم الاوّل من الرحلة هو عظمة ذلك الطريق الكبير الذي عبّده موسوليني في عرض البلاد ، ثم جعله مركزاً مبدئياً للنشاط الاقتصادي والزراعي في برقة ، فأسّس المزارع الى جانبه ، وابتنى الاستراحات لضمان راحة المسافرين على مسافات تبلغ نحو عشرين كيلومتراً ولكنها اصبحت خاوية على عروشها ، اذ انتزع الاعراب الرحل ابوابها ونوافذها ، وحملوا ما كان بها من اثاث . وبعد مسيرة اربع ساعات انحرف السائق بالسيارة عن الطريق

الرئيسية شمالا باتجاه البحر . فلما وصلنا حافة المرتفعات الداخلية اذا بنا نطل على منظر من ابدع ما رأته العين . يهبط الجبل فجأة الى سهل شديد الخضرة ، ينتهي بخليج شديد الزرقة ، قامت عليه مدينة بيوتها ناصعة البياض ، تحيط بها الحدائق الغناء . وقد شغف الطليان بدرنة في ايامهم ، ووصفوها لجمالها بانها جوهرة البحر الابيض ، وزارها موسوليني في زمانه وآثار الترحيب به شاخصة في اعلى الجبل حيث نقشت في حروف جبارة العبارة VIVA IL DUCE « ليحي الزعيم » . ليس في درنة مخلّفات تاريخية قديمة تستوقف السائح ، ولكن جمال المدينة وحسن تنسيقها ، وصفاء حماماتها البحرية ، وتوفير سبل الراحة في منازلها ، وكثرة حدائقها ، ونظافة شوارعها وطيب هوائها ، جعلها محط رحال السائحين الايطاليين في الماضي .

وقد شاهدت بها قباب المرابطين ، وزرت سوقها ، وتتكوّن من عدة شوارع ضيقة متراصة مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بالخشب كعامة الاسواق الشرقية في اغلب مدن افريقية الشمالية . وتعد دار الحاكم فيها آية في فن المعمار ، وربما كانت المبالغة في تجميلها راجعة الى اعدادها لاستقبال موسوليني . وقد عملت الحكومة المركزية في برقة على توفير اسباب العلم والثقافة فيها ، وساعدتها المؤسسات الثقافية العالمية والدولية فأرسلت اليها بعثة فنية اشرفت على توسيع مدرستها وتجهيزها بما يلزم من وسائل تربوية كما اسست مدرسة للبنين واخرى للبنات واستقدمت المعلمين والمعلمات للتدريس فيها . وتركنا درنة متجهين نحو قورينا او سيرين او الشحات كما يسميها عرب برقة اليوم وهي تقع على مسافة تبلغ ثمانين كيلومتراً غرب درنة على مقربة من الطريق الرئيسي ، وبينها وبين ساحل البحر عشرة كيلومترات حيث توجد ميناؤها ابولونا التي تدعى الآن مرسى سوسه .

وقورينا عاصمة برقة القديمة في العصور اليونانية الرومانية ، كما انها ام مركز للعاديات في تلك البلاد ، وقد تعدل اعظم المدن والعواصم الاثرية مثل الاقصر واثينا وروما الى حد بعيد ، غير ان نصيبها كان ادهى واشد ، نظراً لما انزله اليهود بها في ثورتهم الكاسحة سنة ١١٥ - ١١٧ م. حين ذبحوا سكانها وهدموا معابدها ومبانيها . ولقد حاول الامبراطور هادريان ان يعيد لها مكانتها الأولى ، فبادر ببنائها من جديد ، ولكن جهوده لم تثمر كثيراً ، اذ ان قورينا التي كانت مركزاً من مراكز الفن والثقافة الاغريقية تأخذ بالرغم من ذلك في التدهور السريع ، ويهجرها من بقي من سكانها القلائل ، حتى انك لتجدها وقد اضحت خراباً بلقعاً في غضون القرن السادس الميلادي . من بين الاسماء الخالدة التي انجبتها قورينا في عالم الفلسفة والادب والعلوم الاغريقية ، نذكر على وجه التمثيل اريستيب (٤٣٥ - ٣٦٠ ق.م) Aristippes تلميذ سقراط ومؤسس مدرسة قورينا الفلسفية ، وقلياق (٣١٠ - ٢٣٥ ق.م) Callimachus ، الشاعر اليوناني وايراتوستين (٢٧٦ - ١٩٥ ق.م) Eratostbenes اول جغرافي قاس محيط الكرة الارضية ، وكارنياد (٢١٣ - ٦٢٩ ق.م) Carneades مؤسس الاكاديمية الجديدة في اثينا ، والاسقف المسيحي سينيزيوس (٣٨٥ - ٤١٦ م) ، Synesius آخر فلاسفة الافلاطونية الحديثة .

نشأت المدينة القديمة ، كما يتضح من آثارها ، على جبلين يفصل بينهما واد ضيق غير عميق ، تكتنفه الطريق الحديثة الوحيدة التي قامت على جانبيها قرية الشحات اليوم . ويمكن تقسيم آثار قورينا الى مجموعات ثلاث ، الاولى منها على قلة الجبل الغربي حيث الاكروبول ، واهم مشتملاته قبر الملك باتوس مؤسس قورينا (٦٤٠ ق.م) والسوق الكبيرة (الفوروم) التي تضارع في اتساعها ودقة بنيانها اسواق روما القديمة ، ومعبد جوبيتر ، وآخر لعبادة قياصرة الرومان (قيصرون) ، وعدد من القصور التي كشف عنها حديثاً ، نخص بالذكر من بينها قصر جانوس العظيم من مؤسسات العهد الميلادي الاول ، ويمتاز الى جانب دقة الفن والمعمار بامثلة نادرة من الفسيفساء التي ازدانت بها ارض حجراته ، فهذه حجرة تتوسطها رأس ميدوسه وتلك اخرى صورت في اركانها رسوم آدمية تمثل الفصول الاربعة ، كلها ناطقة في ثوبها القشيب من الالوان الزاهية .

ان جانوس هذا كان كبير كهنة الاله ابوللو ، ويزعم بعضهم انه كان من اثرياء تجار قورينا وربما جمع بين الصناعتين بدليل الثروة والرفاهية في قصره ، ويظهر انه عاش في القرن الاول واوائل القرن الثاني الميلادي .

اما المجموعة الثانية فهي على الجبل الشرقي ، وتشمل المعبد العظيم للآلهة زيوس ، وملعب المدينة ، وبقايا كنيسة كبيرة من العصر المسيحي . غير ان هذا الجانب من المدينة قد عفت اكثر رسومه ، ولم يبذل الاثريون والحفارون للآن جهداً مذكوراً للكشف عن معالمه الدارسة .

والمجموعة الثالثة واقعة عند مخرج الوادي حيث توجد هضبة تطل على السهل المنبسط عند قاعدة الجبلين . وعلى تلك الهضبة بنى القدماء من الاغريق معبداً للآلهة ابوللو على مقربة من مغارة سميت باسم الأله نفسه ، ومنها تتدفق المياه الجارية من بطن الجبل ليل نهار ، وكان الناس يهرعون للاستشفاء بها من جميع اقطار العالم القديم . والى جانب معبد ابوللو يوجد معبد ارتميس وهو صغير . وفي ناحيته الجنوبية حوض السباحة والحمامات العامة ، وفي احد ابهائها مجموعة من التماثيل الفنية الرائعة ، يتوسطها تمثال كبير من الرخام للاسكندر المقدوني وهو نادر ، ورأس دقيق الصنع للآلهة زيوس . وفي الجهة الشمالية وراء المعبد عدة ابنية ، اهمها دار التمثيل (هيبودروم) من العصر الروماني وهي صغيرة بعض الشيء ولكنها من احسن

الوصية

قصة

بقلم نديم نعيمه

تلك كانت ليلة من ليالي تشرين ، وقد هادنت فيها سماء الصيف غيوم الشتاء ، فتغامزت النجوم وتراقصت النسائم ، وغمرت نعومة الليل ارجاء الأثير .

كنت اسير في شوارع مدينة لا اعرفها بسوى انها من معاقل القرن العشرين . مدينة صاخبة رعناء . كلما حاول الليل اغماض اجفانها بأنامله السحريّة ، رفعته بآلاف العيون والمصابيح ، وكلما لفلف اذنيها بسكونه الرقيق زجرته بالآف الحناجر والأبواق وأصمّت اذنيه بأصوات المعامل والمطارق والدواليب .

كنت اشق طريقي بين آلاف المخلوقات من بني جنسي ممن ضاقت بهم رحابة الارض فأتوا يوسعونها على ارصفة الشوارع . لقد كانت حركاتهم تتراقص امام عيني ، واصواتهم تتزاحم في اذنيّ وانفاسهم تحيطني من كل صوب وتتغلغل في صدري واحشائي الا انني ما كنت لأصغي او ارقب او أتنشّق لان المهمة الغامضة التي كنت اسير وراءها آنذاك ، والتي انتدبتني لها الليلة الفائتة لم تترك لي متسعاً لذلك . فساعتي كانت تشير الى السادسة وتهمّ ان تجتاز نصف الساعة الذي كان يفصل عقربها عن موعدي باسرع ما تستطيع . كان ذلك الموعد يشغل كياني باسره ويطرح علي اسئلة ما كنت استطيع الاجابة حتى على ايسرها؛ماذا سيكون شأني مع زاروبة الوطواط يا ترى ؟ وما هي تخشيبة رقم ١٦ في تلك الزاروبة ؟ ومن هو ذلك المجهول الذي يريد مقابلتي في الطابق السفلي تحت ارض تلك التخشيبة ؟.

اسئلة غريبة كانت تجوب مخيلتي فتنتهرها ملامحي بتجاعيد عميقة بين حاجبي وتجيبها قدماي بخطوات سريعة متلاحقة .

الامثلة في هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التي تمثل مدينة الاحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاثة كيلومترات . وخارج هذا الحائط من كل النواحي ، تقع مدينة الاموات التي تفوق جميع مثيلاتها في العالم اليوناني الروماني القديم من حيث الكم والكيف على السواء. والناظر من الهضبة الغربية الى سطح الجبل الشرقي يرى المئات بل الالوف من المقابر المنقورة في الصخر طبقات فوق طبقات من اعلى الجبل الى اسفل السهل ، اكثرها قد كشف ، ولكن بعضها بدون شك لم يكشف عنه بعد . غير ان محتويات تلك القبور نهبت الا التوابيت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير . ومن الظواهر الغريبة ان عرب تلك المنطقة وضعوا أيديهم على اغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومراحاً لقطعانهم في الليل.

وابولونيا او مرسى سوسه ، وهي كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات الى الشمال الشرقي منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحي البيزنطي ، احداهما ترجع الى القرن الخامس الميلادي ، واغلب الظن ان عمدها الكثيرة قد أخذت من بناء او معهد وثني اقدم عهداً ، وفيها امثلة حسنة من الفسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . اما الثانية فقد بناها الامبراطور جستنيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء باعمدتها الرخامية من محجره الشهير في بروكونوسوس على شاطيء الدردنيل ، وحالتها اقل جودة من حالة الكنيسة الاولى لطغيان البحر عليها. اما المدينة الحديثة فهي اكبر بكثير من الشجات ، تأنق الطليان في تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالاشجار الباسقة والنوافير الجميلة التي تتفجر منها المياه الجارية ، ولا ادري لماذا نزع الطليان الى طلاء منازلها باللون الاحمر الوردي على خلاف عادتهم في طلاء مساكنهم في بقية المدن باقليم برقة باللون الابيض الناصع .

اذا ذكرت قورينا او الشجات فلا اذكر معها آثارها فحسب ، وانما اذكر رحلتي اليها من درنة وزيارتي رأس الهلال ومنزل « بالبو » الصيفي في الطريق ، واذكر يوماً قضيته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر في زيارة قرية البيضاء.

اما رأس الهلال فالطريق المؤدية اليها تتفرع من الطريق الرئيسية شمالاً عند مكان يدعى للمودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات اسسها الجنرال بالبو ايام صولته خصيصاً للوصول الى البقعة التي انتقاها لتكون مقره الصيفي . ولا نبالغ اذا قلنا ان المنطقة التي يخترقها المسافر في طريقه الى رأس الهلال لا تقل في جمالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوروبا ، حتى ان المتأمل في جبالها واوديتها ليسبح به الخيال الى جبال الغابة السوداء او جبال ويلز او منطقة البحيرات الايطالية او ساحل الريفييرا ، اما منزل بالبو — وهو اليوم

(البقية في الصفحة ٧٦)

برقة العربية

– تتمة المنشور على الصفحة ٢٩ –

قاع صفصف واثر بعد عين – فان موضعه آية من آيات الله في جمال الطبيعة وجلالها ، ابتناه صاحبه على رأس جبل صغير متفرع من سلسلة الجبال الغربية عند فم الوادي على غرار حصون القرون الوسطى التي طالما يراها المرء في سياحاته بوادي الرين ، يهبط منه البصر الى سهل سحيق تتوسطه قرية رأس الهلال بين المزارع في حللها السندسية ، ويظهر البحر وراءها في زرقة عجيبة لم اشاهد مثيلها الا من الطائرة على ارتفاع كبير .

هنا تتجلى بحق روعة الطبيعة وهدوؤها ، وهنا مهبط للوحي والشعر ، وهنا رقة الهواء وصفاؤه . وقرية الشحات ذاتها تذكرني تماماً بقرى ويلز الشمالية ويذكرني المنزل الذي نزلت فيه بمنزل كنت مررت به يوماً في احدى تلك القرى النائية ، فهو مثله على جبل عال اطلّ منه على واد فسيح تحده سلسلة اخرى من المرتفعات والتلال ، وجميعها مكسوة بالخضرة التي تريح البصر والنفس والذهن المضنى . وقد امتاز هذا المنزل بحديقة تحوي من اشجار الفاكهة ومن الزهور الوانا شتى لا تعرفها المناطق الشمالية الباردة . ولا انسى يوماً قضيته مع الحاكم بين مشايخ قبيلة عربان الحاسة داخل الجبل الاخضر في احدى المزارع التي كان الايطاليون قد عمروها ثم هجروها اثناء الحرب . فبينما نحن في طريقنا بين تلك المزارع ، لاحظت وجود خيام منصوبة بجوار البيوت المشيّدة التي ابتناها المستعمرون الايطاليون في الماضي واستولى عليها العرب في الحاضر . فلما سألت عن ذلك قيل لي بكل بساطة ان العرب يفضلون البقاء في خيامهم ويتركون المنازل للماشية في الليل وان دلّ هذا الموقف العجيب على شيء فانما يدل على احتفاظ عرب برقة بحياة البداوة القديمة اكثر من اخوانهم الذين نزحوا من جزيرتهم الاصلية للحضر شرقاً وشمالاً فتحضروا بحضارة اوطانهم الجديدة وذهبت بداوتهم .

وصلنا الدار التي اجتمع فيها للقائنا مشايخ الحاسة ، وتناولنا طعام الغداء ، ولم يكن مع الاسف عربياً خالصاً كما كنت ارجو . وقبل ان نعود ادراجنا شاهدنا بعض حجرات المنزل والاسطبلات والمخازن المنظمة التي بناها الايطاليون على مثال احدث المزارع الاوروبية ، وكذلك البئر التي يحبسون فيها مياه الامطار ، والحديقة العامرة بالكروم واشجار الفاكهة والرياحين ، ثم ركبنا وركب معنا شيخ مشايخ العربان لتوديعنا الى بابنا في الشحات على الطريق المؤدية غرباً الى المرج ، وسيذكر التاريخ هذه القرية لسببين : الاول انها كانت مركز قيادة « رومل » ، والبيت الذي كان يدير منه دفة الهجوم الافريقي قائم يسكنه اليوم السيد ادريس زعيم السنوسية ، والسبب الثاني هو ان موسوليني عند زيارته برقه قبيل هجوم المحور على مصر جمع مشايخ عربان المنطقة في الساحة الكبرى بتلك القرية ليخطب فيهم خطبته المشهورة في كلمة واحدة لا ثاني لها ، فصعد مدرجاً عالياً بني خصيصاً لهذا الغرض – وهو موجود الى اليوم – واخرج من جيبه منديلاً ولوح به لسامعيه مشيراً اليه صارخاً « مصر » ثم وضع المنديل في احد اكمامه وانصرف ، كأنما الاستيلاء على مصر في نظره من السهولة بقدر استخراج ذلك المنديل من جيبه ووضعه في كمه .

الطريق من الشحات حوالي مائة كيلو متر ، ومن المرج الى طلمية حوالي الثلاثين . والمرج هو الاسم المتداول اليوم لمدينة برقه ، كما ان طلمية هي بطلميوسة او بطلاميد مدينة البطالمة . والاولى من مؤسسات الاغريق في القرن السادس قبل الميلاد ، كما ان الثانية اخذت اسمها عن بطليموس الثالث بورجيتيس (٢٤٦ – ٢٢١ ق . م) الذي ورث برقه بحكم زواجه من بيرينيس ابنة امبرها . وكانت طلمية منذ تأسيسها ميناء برقة : ولكنها سرعان ما بلغت المرتبة الأولى بين مدن برقه الخمس (بنطابوس) وتفوّقت على برقه نفسها لاهتمام البطالمة بأمرها ، وتشجيعهم لسكانها .

والطريق الى برقة يناطح في جماله وروعته الطريق الى رأس الهلال ، لا سيما في وادي الكوف (الكوف جمع كاف يقال انها مشتقة من اصل اوروبي Cave ومعناها كهف) حيث تضيق ممراته ضيقاً شديداً ، وترتفع الجبال على جانبيه ارتفاعاً عمودياً شاهقاً مروعاً ، وتنفغر من بطن الجبل على علو كبير كهوف واسعة وعميقة ، هي الكهوف التي سكنتها فرق

الحي اللاتيني

رواية الشباب العربي القلق

الذي يبحث عن نفسه

تأليف

الدكتور سهيل ادريس

بادر الى قراءتها ، إن لم تقرأها بعد !

دار العلم للملايين

المجاهدين العرب ضد الاستعمار الايطالي، أنزلوا اليها بالحبال ، واتاهم اخوانهم من اعلى الجبل بالمؤن والعتاد ، فاستطاعو من مخابئهم الحصينة ان يقطعوا على الايطاليين الطريق دون الوصول الى اقليم برقه الشرقي في سنين عدة ، ولم يتمكن الغزاة من كبح جماحهم واستئصال مقاومتهم الا بعد ان نزلوا من البحر عند درنة ثم ساروا عليهم من الشرق والغرب في وقت واحد تحرسهم طائرات الهجوم من عل . اما طريق طلمتية فيبدأ قبيل الوصول الى برقه شرقاً ، وهو طريق شديد الوعورة، قائم على اساس الطريق الذي شقه الامبراطور تراجان في القرن الثاني الميلادي مع تعديلات طفيفة .

وتقع برقة في سهل زراعي خصيب متسع الارجاء ، اشتهر في التاريخ القديم بانتاج الغلال وتربية الخيول . وآثار برقة قليلة ، منها مقبرة اغريقية قديمة منقورة في الصخر على بعد خمسة كيلو مترات عند بداية المرتفعات الشرقية ، ثم بقايا كنيسة مسيحية من بنيان الامبراطور جستينيان حوالى سنة ٥٣٥ م ، تشبه عمدها كنيسته في ابولونيا . وعلى الساحة الكبرى التي تتوسط المدينة والتي تدعى الآن (ساحة مونتجومري) يوجد حصن كبير بناه الاتراك سنة ١٨٤٠ من الحجر الرملي ، وهو الآن المركز الرئيسي للحكومة بأقليم برقة ، وعند مدخله توجد عدة لُوَحٍ وشواهد بالخط الكوفي القديم المزخرف . وبجانب ذلك الحصن يوجد « الأوتيل » الكبير الذي تأنق الايطاليون في بنائه وجلبوا له الرخام الملون والاثاث والرياش وادوات الترف من ايطاليا، وهو الآن نادي الضباط .

واذا كانت برقة فقيرة في آثارها القديمة ، فان طلمتية على العكس من ذلك غنية بها . وبقدر تفاهة القرية الحديثة كان عز طلمتية القديم واتساع ارجائها ؛ فان ما بقي منها يدل على انها كانت تمتد من الساحل في عرض السهل الى التلال الجنوبية، وانها من حيث تنسيقها لا تقل عن مدن البطالمة الاخرى بما فيها الاسكندرية ؛ فشوارعها مستقيمة ، ومبانيها فاخرة ، يدخلها الزائر من الباب الغربي القديم الذي لا زال قائماً الى ارتفاع يزيد عن ستة امتار ، وعلى جدرانه نقوش اغريقية وعربية كثيرة ، وفي الجنوب آثار جسر للمياه كان يصل عيناً جارية على بعد اربعين كيلومتراً في الجبل بخزان الماء العظيم الذي يعد من اعظم واكمل الامثلة لخزانات المياه الرومانية، ينزل الانسان اليه من مدخل معين ، فيجده عبارة عن سبع حارات عميقة تقطع سبعاً أخرى في زوايا قائمة ، عروشها معقودة وسميكة . وفوق هذا الخزان السوق (الفورم) يتوسطه هيكل وبعض اعمدة قد تكون جزءاً من معبد لعبادة القياصرة . والمدينة عامرة بآثار المباني اليونانية والرومانية الفخمة ، قام الاثريون بأصلاح احدها وهو قصر لثري من اثريائها ما زالت تلوح عليه علامات البذخ والترف بأجلى مما تظهر به حتى في قصر جانوس العظيم بأكروبول قورينا . وربما كان امتع ما فيه الفسيفساء البديعة التي تزدان بها ارض حجراته من حيث دقة الصنع وجمال الرسوم النباتية والحيوانية وبهجة الوانها ، لا سيما صورة لرأس ميدوسا الميثولوجية تعد تحفة بما فيها من حياة وبريق والوان زاهية صافية ، ووسط هذا القصر نافورة وحمّام للسباحة يحيط بهما صف من العمد الكبيرة المزخرفة الجميلة الصناعة. وفي دور سفلي توجد الحمامات والمخازن ومساكن الخدم وعدد من الحوانيت الجانبية بحذاء الطريق العام الخارجي . وفي طلمتية غير ذلك آثار لدار تمثيل يونانية وملعب روماني ومدرج لالعاب المصارعة . غير انه يفوق كل ذلك مبنى الكنيسة الكاتدرائية العظمى التي ترجع الى القرن الرابع المسيحي ؛ لان بانيها هو الاسقف سينيزيوس آخر شخصية كبيرة في عالم الادب والفلسفة الاغريقي القديم .

وقد اهتم الايطاليون بكنيسة سينيزيوس اهتماماً عظيماً ، واعادوا بناء كثير من اجزائها كما كانت . وهي بلا نزاع من الامثلة الفريدة للمباني الدينية المحضة في عهد القلاقل والثورات . فمدخلها عبارة عن منفذ صغير لا يسمح لاكثر

صدر الجزء السادس

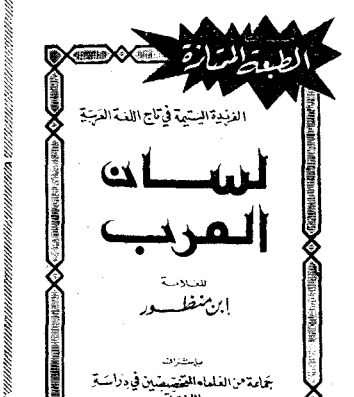

المجلد الاول – حرف الهمزة والباء –

من رجل او رجلين بولوجه ، وحوائطها الخارجية كحيطان الحصون في ضخامتها ، ويعلوها طريق لسير الحراس وجنود المقاومة ، وفي ردهاتها آبار وصهاريج لاختزان الميـــاه تحت الارض لتموين حاميتها اذا طال حصارها .

والمسافة ما بين المرج وبنغازي حوالى مائة وعشرة من الكيلومترات. وتقع طغرة على اقل من منتصف الطريق الى بنغازي . وطغرة مثل طلمينة كانت في الماضي احدى موانى برقة ، ولكنها الآن اعظم اتساعـــاً ، واكثر تنسيقاً ، والطف هواء ، واخف روحاً من طلمينة ، الا ان آثارها عبارة عن اكوام لم تمسها بعد ايدي الحفارين والاثريين المنقبين بجد ، فهي لذلك حقل بكر للبحث والانتاج .

وطغرة الحديثة قائمة الى الداخل بعيداً عن الساحل ، في حين توجـــد المدينة القديمة بجوار قلعة تركية على شاطيء البحر . وحوائط المدينـــة البيزنطية كاملة الدائرة من عهد الامبراطور جستنيـــان في القرن السادس الميلادي ، وليس في برقه القديمة بأكملها ما يضارع هذا الحائط في احتفاظه بكيانه . وداخل المدينة من ناحيـــة الحصن العثماني الطريق الرئيسي الذي يخترقها من الشرق الى الغرب وهو مستقيم مرصوف بالحجـــارة ، والى جانبه من الناحية الجنوبية الشرقية آثار هيكل وعمد رخامية ورؤوس عمـــد مهشمة عليها صلبان بيزنطية تدل على ان بالمكان كنيسة من ذلك العصر . كما يلاحظ ان على بعض اجزاء تلك العمد نقوشاً عربية من عهد متأخر. وفيما دون ذلك لا يكاد الرائي يميز شيئاً معيناً بين خرائب المدينة التي يختلط في تلالها واكوامها الرماد بالحجارة والاعمدة المتكسرة .

اما بنغازي فيدركها المسافر في ارض منبسطة ، وفي حدودها الجنوبية الشرقية منطقة الملاحة التي تغمرها مياه ملحة قليلة الغور يستخرجون منهـــا الملح على غرار ما هو حاصل في بقية السبخ والبحيرات كالجبول وجيرود . ويلاحظ الانسان لأول وهلة من دخوله اياها ان ما نالها من وطأة الغارات الجوية لم ينل مدينة اخرى بشمال افريقية غير طبرق . فانـــك لا ترى طريقاً من طرقها الا والمتخرب من مبانيه يعدو العامر . اما العمائـــر الكبرى التي بالغ الايطاليون في الاسراف على بنائها وتجميلها مبالغة تفوق حد الحسبان ، فما لم يتهدم منها بكامله ، اصابت القنابل بعض اجـــزائه ، واصلح البريطانيون الاجزاء الباقية ليستعملوها للدواوين وللسكنى .وميناء بنغازي العظيم اصبح قليل النفع لكثرة الغارق فيه من السفن . وربما كانت الاحياء التي لم تصبها القنابل بأصابات كبيرة تنحصر في منطقتي الكاتدرائية العظمى والسوق الوطنية . وجو بنغازي غير جذاب تغلب عليه الحرارة التي ليس فيها من جفاف الهواء ما يشفع لها ويخفف من وطأتها .

وبالرغم من ان بنغازي ذات مكانة في التاريخ القديم ، حينما كانت تحمل اسم برنيقة Berenice زوجة بطليموس الثالث ، فهي خالية من الاثار التي تدل على مجدها التليد . وكل ما يمت لذلك التاريخ بصلة هو ان الاقدمين حددوا موقع الجحيم والنعيم كما وردا في اساطير الآلهة الميثولوجية ، عنـــد نقطة قريبة من بيرينيس في جهة تدعى « ليتي » على عشرة كيلومترات من بنغازي على طريق مطار « بنينة » الشهير .

وهذا الجحيم الميثولوجي (وهي مغـــارة ليتي التي يسميها العرب الشق الكبير ، اعتبرها الكتاب الاقدمون امثال سترابون وبطليموس الجغرافي بما فيها من المياه نهراً من انهار الجحيم الميثولوجي تشرب منه ارواح الموتى فتنسى افراحهـــا واتراحها في الماضي على الارض) يختلف عن جهنم ذات السعير التي ذكرت في الكتب المقدسة ، فهو عبارة عن مغـــارة عميقة في بطن الارض واصلة الى العالم السفلي .

نزلت عشرات الدرجات الى فوهتها مع دليل يقودني بين احراش كثيفة فاذا ما وصلنا الى حيث تبدأ الرحلة الابدية اوقدنا مشاعلنا ، وهبطنا في الغار متوكلين على الله عز وجل ، طالبين السلامة ، وكلما تعمقنا فيه ضاق بنا الموضع ، وانخفض الصخر المتدلي على رؤوسنا ، فانحنينا وانحنينـــا حتى كادت ظهورنا تنقصم من شدة الانحناء . واخيراً علا الصخر وانفرج المكان فجأة ، ولكن الظلمات تكاثفت حتى كأن سوادها قد امتص ضوء المشاعل ، فكنا نرى لهيبها فاتراً ولا نرى مدى الضوء من حلكة هذا الليل الابدي ، ثم عبرنا قنطرة صغيرة ، واذا بقائدي يصيح بي ان قف ، ولن تستطيـــع الى ما بعد ذلك سبيلاً . فشعرت بقشعريرة غريبـــة لا ادري اهي ترجع لعامل الخوف الغريزي الذي يعتري المرء في اعمـــاق الظلمات وهو لا يعرف الى اين يسوقه القدر وتسوقه القدم ، ام هي البرودة التي يشعها ذاك الماء المثلج الذي يملأ بقية المغارة الى مسافات طويلة ، والذي من اجله استوقفني دليلي عند تلك النقطـــة ! عدنا ادراجنا من جديـــد نتخبط في تلك الظلمات وطلبت من دليلي ان يريني جنة الآلهة اليونانيـــة التي حدثني عنهـــا لتعويض مـــا نالني من جحيمهم ، وصعدنا الى دنيانا نحن الاناسي ، وعبرنا الطريق المجاورة ، واذا بمرشدي يشير الى مساحـــة من الارض الحرام ، كتب عـــلى بابها انها مخصصة لادارة الطيران الحربي ، ثم قال هذه هي الجنة التي تنشد رؤيتها !

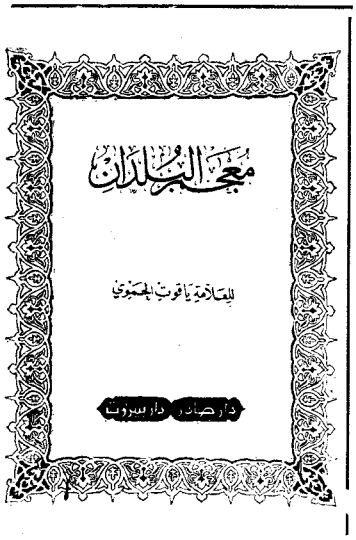

فوزي هنانو
دكتور في الفلسفة
والعلوم السياسية